بعد دراسة اهم الاتجاهات الفكرية في علم الاجتماع يجب علينا دراسة مجموعة من علماء الاجتماع البارزين الذين يمثلون هذه الاتجاهات الفكرية الثلاثة ودراستنا لهم تنطوي على شرح تاريخ حياتهم والمساهمات العلمية التي قدموها في تطوير النظرية الاجتماعية.

الاتجاه الوضعي المحافظ في علم الاجتماع

١. اوكست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧)

اوكست كونت هو فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي شهير، يعتبر من اوائل علماء الاجتماع الكلاسيكين الذين مهدوا السبيل لنشوء واستقرار علم الاجتماع بعد فصله عن العلوم الطبيعية والانسانية وتثبيت حدوده العلمية واحراز استقلاليته المنهجية والموضوعية.[١٣٧] واوكست كونت يعد من علماء الاجتماع التاريخيين الذين حاولوا دراسة المجتمع الانساني دراسة تطورية تهدف الى اقتفاء المراحل التاريخية الحضارية التي تمر بها المجتمعات وتدرس صفات وخصوصيات ومشكلات كل مرحلة على انفراد ثم تشتق القوانين الشمولية التي تفسر طبيعة مسيرة المجتمعات والقوى الموضوعية والذاتية التي تؤثر فيها. اشتغل المفكر كونت مع سانت سيمون خلال الفترة الزمنية (١٨١٧ - ١٨٢٣) وتراسل مع الفيلسوف الانكليزي جون ستيوارت مل. وكان كونت اول من اطلق على الاجتماع اسم السوسيولوجي (Sociology) اي علم دراسة المجتمع البشري دراسة وصفيه وتحليليه يطغي عليها الجانب العلمي والموضوعي.[١٣٨] كما انه اول عالم اجتماعي محترف يرجع اليه الفضل في بناء وتطوير النظرية الاجتماعية المعتمدة على الاسلوب النظامي والمنهج التجريبي العلمي الذي اطلق عليه اسم الطريقة الوضعية . (The Positive Method)

---

(١٣٧) الحسن، احسان محمد (الدكتور)، قراءات في علم الاجتماع الحديث، مطبعة الحرية، بغداد، ص ٥٠.

(138) Hinkle, R. The Development of Modern Sociology, New York, Random House, 1963, P. 4.

ان سبب تخصص كونت في دراسة الاجتماع يرجع الى رغبته الجامحة في دراسة وفهم واستيعاب طبيعة ومشكلات المجتمع الفرنسي ابان عصر الثورة الفرنسية ووضع قيم ومقاييس ومثل جديدة يسير عليها المجتمع الثوري بعد القضاء على القيم والممارسات القديمة التي رافقت العهود الملكية المقبورة التي ادت دورها الكبير في تخلف وجمود المجتمع الفرنسي. والقيم والمثل والمقاييس الجديدة التي اراد كونت وضعها ونشرها في المجتمع تنطبق مع روح العصر والمفاهيم الجديدة التي انتشرت في اوربا بعد حركة الاصلاح الديني التي قام بها لوثر ومؤيدوه وانصاره، لكن كونت بالرغم من مرافقته وعمله مع سانت سيمون لم يتأثر بافكاره وطروحاته الاجتماعية والسياسية كما ادعى في عدة مناسبات، اذقال بان افكاره وتعاليمه وخططه الاجتماعية لم تتأثر قط بتعاليم وفلسفة سانت سيمون.

استعمل كونت اصطلاح (وضعي) و (وضعية) (Positivism) في جميع المقالات والابحاث والطروحات العلمية التي كتبها حول البناء الاجتماعي وتغيير المجتمع . وكان يعتقد بضرورة استعمال هذا الاصطلاح في دراسة وتحليل مواضيع السياسة والفلسفة والاجتماع . واهمية استعمال الاصطلاح تكمن في رغبته الملحة في تحويل العلوم الاجتماعية هذه من علوم ادبية وفلسفية الى علوم واقعية وموضوعية تهتم بدراسة الظواهر والحقائق الاجتماعية والحضارية دراسة مشتقة من طبيعة المحيط الذي تشتق منه هذه الظواهر والحقائق ودراسة تبتعد عن اسلوب التكهن والحزر الفلسفي والمتفيزيقي.[١٣٩] ان حقائق ونظريات الاجتماع والسياسة حسب رأي كونت يجب ان تكون حقائق ونظريات واضحة وسلسة ومنطقية بحيث يمكن لمسها والشعور بوجودها وتجربتها وتدوينها باسلوب علمي يفصح عن طبيعتها واهميتها الاكاديمية والتطبيقية. كما يضيف كونت بان الحقائق والظواهر الاجتماعية يمكن دراستها وتحليلها وتصنيفها بنفس الطريقة التي تدرس وتحلل فيها الظواهر الطبيعية والمادية كالظواهر الفيزيائية والكيمائية والبايولوجية والاقتصادية.

وانتقد اوكست كونت مناهج دراسة علم الفرد او علم النفس الفردي لكون هذه المناهج غير قادرة على جمع وتدوين الحقائق عن طبيعة الفرد السلوكية والتفاعلية نتيجة لتعقيد وغموض العقل الباطني عند الفرد وعدم مقدرة المحلل النفسي على فهمه واستيعابه

---

(١٣٩) الحسن، احسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة نظامية، بغداد، مطبعة الجامعة، ١٩٧٦، ص ٣٧.

للقوى والعمليات السيكولوجية التي تكمن فيه. لهذا ينبغي اهمال علم النفس الفردي وتفويضه بعلم النفس الجماعي او علم الجماعات طالما ان هذا العلم يهتم بجمع وتحليل الحقائق والظواهر المتعلقة بالجماعات، وصحة هذه الحقائق والظواهر الجمعية تكون ثابتة وعالية لكونها مشتقة من عدة افراد وليس من فرد واحد كما اعتقد كونت.(١٤٠) واهتم العالم الفرنسي ايضا بدراسة السلوك الاجتماعي وحاول ايجاد نظرية مستقلة بالعلوم الاجتماعية تتوخى معرفة واستيعاب علاقات وتصرفات الافراد عن طريق دراستهم دراسة علمية، ومثل هذه الدراسة يمكن القيام بها بتوجيه الاسئلة اليهم والتعرف على اجاباتهم وتدوينها بقالب نظري علمي له اهميته في تفسير علاقاتهم وسلوكهم اليومي وتشخيص مشكلاتهم الآنية والمستقبلية. كما ويمكن استعمال اسلوب المشاهدة في اشتقاق مثل هذه المعلومات القيمة عن الحياة الاجتماعية للافراد والجماعات-اذن ينبغي ان تحل النظرية الوضعية والدراسات الاجتماعية العلمية محل اللاهوت وفلسفة ماوراء الطبيعة.

ان الثورة الفرنسية ومؤثراتها السياسية والاجتماعية التي عاشها كونت قد حفزته على وضع الأسس النظامية للمجتمع الجديد الذي يجب على فرنسا اعتماده والالتزام بتقاليده وقيمه.ومثل هذا المجتمع الجديد يجب ان يتكيف مع روح وتطلعات العصر ونفسية الشعب الفرنسي وطبيعة مشكلات المجتمع والمبادئ الثورية والتحولية التي تسيطر عليه وترسم اطر اتجاهاته المادية والمثالية. لهذا وضع كونت قوانين اجتماعية واخلاقية وشرعية جديدة يمكن ان يسير عليها المجتمع الفرنسي، ومثل هذه القوانين اشتقها من عدة علوم اهمها السياسة والاقتصاد والقانون وعلم النفس. وقد كونت هذه القوانين الصرح المنهجي والموضوعي للعلم الجديد الذي وضع أسسه ومنهجيته ومضمونه المفكر الفرنسي والذي اطلق عليه اسم السيولوجي علم دراسة المجتمع والقوانين التي تسيره.(١٤١) لكن كونت اعتقد بان العلم

الجديد الذي ابتدعه يجب ان تتوفر فيه الشروط التالية:

١. ان تكون المعلومات والحقائق التي يتكون منها علم الاجتماع متكاملة ومتناسقة وعلى درجة كبيرة من الدقة والموضوعية.

---

(١٤٠) نفس المصدر السابق، ص ٢٨.

(141) Broom, L. and P. Selznick, Sociology, New York Harper and Row, 1968, P. 4.

٢. على العلم الجديد التفتيش عن طرق جديدة يمكن اعتمادها في البحث العلمي، هذا البحث الذي يساعد على تثبيت وتطوير نظريات العلم وقوانينه الشمولية.
٣. ينبغي على علم الاجتماع تزويدنا بقاعدة نظامية وأسس علمية لدراسة وتحليل عمليات التفاعل الاجتماعي.
٤. يجب ان يكون العلم الجديد قادرا على شرح وتوضيح نظريات وقوانين الاديان السماوية والمثل والاخلاق والقيم.
٥. على النظريات الاجتماعية ان تكون قادرة على التبدل والتحور تبعا لتغيير الظروف والظواهر الاجتماعية والسلوكية. وهذا يعني ضرورة تميز نظريات الاجتماع بالنسبية والمرونة وابتعادها عن صفة التعصب والتحيز والتحجر. يشير كونت الى ان نظريات الاجتماع تتبدل بتبدل الانسان والانسان يتبدل اذا تبدل محيطه علما بان المحيط يتأثر بالمعطيات المادية والمثالية وبدرجة التقدم العلمي والتكنولوجي الذي شهده المجتمع. وهذا ماحصل في معظم المجتمعات الاوربية بعد الثورة الصناعية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

اما آراء كونت حول موضوع التغير الاجتماعي فهي ازاء واضحة وموضوعية وتعبر عن منهجه التاريخي الذي اقتفاه في دراساته الاجتماعية. يعتقد كونت بان المجتمع البشري يمر بثلاث مراحل حضارية مختلفة هي:

١) المرحلة اللاهوتية الدينية(Theological State)

والتي تتميز باهمية وأثر الدين الواضح في الحياة الاجتماعية، وسيطرة الدين على تفسيرات علوم الحياة والعلوم المادية والانسانية.[١٤٢] وخلال هذه المرحلة التي يعيشها المجتمع الانساني تتغلب على افكار الرجال العواطف والشعور بالخوف من قوة سماوية هائلة. كما ان المرحلة ومايجول فيها من قيم وافكار تجعل الفرد يحس بضعفه وصغره وعدم قدرته على التأثير والتبديل. وبعد فترة من الزمن تحولت هذه الموحلة الى مرحلة ارقى من المرحلة الاولى وهي المرحلة الفلسفية المثالية (Metaphysical Stage)

---

(١٤٢) الخشاب، مصطفى، علم الاجتماع ومدارسه، الكتاب الاول، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥، ٢٤٠.

٢) المرحلة الفلسفية المثالية

تسمى احيانا بمرحلة ماوراء الطبيعة التي تتميز بالتفكير الموزون والامثال الحية والحكم والبلاغة الفكرية والمآثر التي يطغي عليها الطابع الفلسفي الطوبائي الذي يختلف عن الطابعين الديني والعلمي الواقعي باسلوب الدراسة والتحليل والاهمية البراغماتيكية والتطبيقية. لكن المفكرين في هذه المرحلة من التطور البشري انشغلوا بدراسة الكون والاجرام السماوية ومواهب الانسان وقدراته الخلاقة وافكاره التي تحكم سلوكه وعلاقته مع الآخرين. وتأثرت هذه المرحلة الحضارية بتعاليم الفلسفة المثالية التي تبناها رجال الفكر والمنطق. هذه التعاليم التي ينبغي ان يسير فيها المجتمع كيما يحقق السعادة والرفاهية والطمأنينة. وبعد تعقد وتشعب المجتمع وزيادة مشكلاته المادية والانسانية خصوصا بعد الثورة الصناعية التي اجتاحت اوربا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين انتقلت الحضارة الانسانية الى طور ثالث يتميز بالتقدم والنمو والازدهار، وهذا الطور يسمى بالمرحلة العلمية الواقعية.

٣) المرحلة العلمية الواقعية (The Positive Stage)

في هذه المرحلة يضعف دور الدين واللاهوت ويتلاشى دور الفلسفة المثالية في تفسير وتحليل ظواهر الحياة المادية والروحية. لكنه يظهر المذهب العلمي الجدلي التحليلي في تفسير وشرح الظواهر الطبيعية والانسانية.[١٤٣] ويعتمد هذا المذهب في التحليل على اسلوب السبب والنتيجة اي ان لكل حادثة او ظاهرة سبباً خفياً او ظاهرة فالسبب يؤدي الى حدوث الظاهرة وللظاهرة نتائج ذاتية وموضوعية تنعكس على المجتمع وتسبب تقدمه او تخلفه اعتمادا على النتائج التي شهدها. ان اسلوب الدراسة الوضعية كما اطلق عليه كونت والذي يأخذ في الحسبان السبب والنتيجة ينبذ جميع الطرق التي لاتدرس الظواهر دراسة علمية تعتمد على المشاهدة والاستنتاج العقلاني للعمليات والتفاعلات الانسانية والطبيعية. في هذه المرحلة العلمية دأب العلماء والمفكرون الى البحث عن قوانين ثابتة تفسر السلوك والعلاقات الاجتماعية وتعلل الظواهر والحقائق الانسانية تعليلا علميا

---

(١٤٣) نفس المصدر السابق، ص ٢٤١.

منطقيا مستنبطا من طبيعة الظاهرة والحقيقة قيد الدراسة والبحث. كما اعتمد العلماء على هذه الاساليب البحثية في وضع الاهداف الاجتماعية وتهيئة السبل التي من خلالها يمكن تحقيقها خدمة لتقدم وتنمية المجتمع.

اعتقد كونت بأن جميع العلوم التي عرفها الانسان قد مرت بهذه المراحل الحضارية الثلاث. ومن سياق حديثه عن العلوم التي اهتدى اليها الانسان بمرور الزمن حاول اضافة علم جديد الى العلوم المعروفة في زمانه وهو علم دراسة الانسان او علم الاجتماع. وقد ادخل هذا العلم في برج العلوم ووضعه في قمة البرج نظرا لحداثته وتعقده واهميته في دراسة الانسان وبيئته.

لكن لبرج العلوم كما يشير كونت تاريخ قديم يوضح الفترات الزمنية والتاريخية التي وجدت خلالها هذه العلوم. ذلك ان العلوم القديمة كعلم الفلك والرياضيات تقع في قاعدة البرج وتكون اساس بنائه وهيكله المتجه نحو الاعلى، بينما تقع العلوم الاخرى كالفيزياء والكيمياء فوق العلوم التي تشكل القاعدة، وتأتي بعدها علوم الحياة كعلم الحيوان والنبات. ويأتي علم الاجتماع في قمة هذا البرج.(١٤٤) ان العلوم التي تحتل قاعدة البرج هي علوم بسيطة وسلسة وواضحة من ناحية حقائقها ومعلوماتها وفروضها ونظرياتها وقوانينها الشمولية. بيد ان العلوم تصبح اكثر تعقدا وصعوبة كلما ارتفعت عن قاعدة البرج نظرا لكثرة معلوماتها وحقائقها وتعقد اسباب ونتائج ظواهرها وتشعب فروضها ونظرياتها. ومن الجدير بالذكر هنا الى ان طبقات العلوم في البرج مربوطة واحدتها بالاخرى، وربطها هذا يشير تكامل العلوم ووحدتها واهميتها في تذليل مشكلات الانسان والمجتمع. لكن علم الاجتماع يشغل قمة البرج وذلك لاهميته في بناء النظريات والقوانين التي تفسر الظواهر الاجتماعية وترسم احكام السلوك والعلاقات وتوضح عوامل سكون وديناميكية المجتمع وتعليل مشكلات الجماعات وكيفية حلها. اما الطرق المنهجية التي يعتمدها علم الاجتماع في الدراسة والتحليل فهي نفس الطرق التي تعتمدها العلوم الطبيعية في جمع الحقائق وتصنيفها وبناء الفروض والنظريات وحل المشكلات التي تواجه حقولها التخصصية. والطرق التي تستعملها العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء وعلم الاحياء هي طريقة المشاهدة وطريقة المقارنة وطريقة المسح الميداني.

---

(١٤٤) الحسن احسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة نظامية، ص ٩٠.

واستعان كونت في نظريته الاجتماعية بعدد من المصطلحات العلمية مثل السكون او الثبات الاجتماعي (Social Static) والـــداينميكيـــة او التغير الاجتماعي (Social Dynamic) يعني كونت بالسكون الاجتماعي العلاقة بين الظواهر والعمليات الاجتماعية وتكامل بعضها مع البعض خلال نقطة زمنية محددة وتداخل المؤسسات واداء كل منها وظائفه المحددة خدمة لاستمرارية الكل الاجتماعي.(١٤٥) وتكامل المؤسسات يتجسد في اجتماعها وتظافرها من اجل خدمة الافراد والجماعات، واذا ماحدث هذا فان اجزاء المجتمع تكون متماسكة ومترابطة بحيث يكون المجتمع موحداً وقويا وقادرا على تحقيق اهدافه القريبة والبعيدة. ويعني كونت بالداينميكية او التغير الاجتماعي تغير مؤسسات المجتمع بمرور الزمن نتيجة تبديلات وتحويرات تحدث في بعضها او جميعها بسبب عوامل طبيعية او انسانية مقصودة او غير مقصودة. ان تغير مؤسسة معينة كما يشير كونت لابد ان يؤثر على بقية المؤسسات الاخرى اذ يتبدل البناء الاجتماعي ويمر المجتمع من مرحلة حضارية الى مرحلة اخرى تتسم بالتقدم والنمو والفاعلية كتقدم المجتمع من المرحلة الفلسفية الى المرحلة العلمية الواقعية.

ويرى كـونت بـــأن التضـــامن الاجتماعي (Social Cohesion) لا يمكن ان يتحقق بصورة كاملة الا اذا وجه المسؤولون عنايتهم واهتمامهم باصلاح ثلاثة نظم اجتماعية اساسية وهي نظام التربية والتعليم ونظام الاسرة والنظام السياسي . فالتعليم يضبط الغرائز الفطرية ويهيمن عليها ويحول طاقاتها نحو منافذ تخدم الحضارة والمجتمع . كما انه يهذب المشاعر الانسانية ويسمو بمدركات الفرد وتصوراته واحكامه ويصقل عنده نظامه القيمي والاخلاقي الأمر الذي يحد من انانية الفرد ويدفع الانسان على تقوية علاقاته الاجتماعية بالأخرين بحيث تعيش الجماعة في وئام وسلام . اما الاسرة فتقوم بتقوية عاطفة حب الغير وتحول انانية الفرد الى حب الجماعة من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية والتربية الاخلاقية التي تتعهد بها (١٤٦) كما انها مصدر زيادة السكان عن طريق

---

(143) Mbrudeln, D.The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Houghton Mifflin, 1981, P. 70.

(١٤٦) الخشاب مصطفى الدكتور علم الاجتماع ومدارسه الكتاب الاول ص ٢٤٦.